المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 - Electronic ISSN 2790-1254
العدد 18A2 2025 تشرين1
No. 18A2 2025 October

طوق الحمامة في الألفة والألاف لأديب الفقهاء ابن حزم الاندلسي ت ٤٥٦ هـ)

مراجعة مقال في كتاب

م.م.شيماء عبد الباقي عواد فريح
كلية التربية للبنات – جامعة الأنبار
Shaima.a.awad@uoanbar.edu.iq

ملخص

بين أيدينا اليوم واحدٌ من أرقّ ما سطرته الأقلام الأندلسية، وأكثرها جرأة وإنصافاً للمشاعر الإنسانية؛ كتاب "طوق الحمامة في الألفة والآلاف" للإمام الفذ أبي محمد علي بن حزم الأندلسي (المتوفى سنة 456 هـ). لا يُصنف هذا العمل كمجرد ديوان شعر أو كتاب في "الغزل"، بل هو دراسة نفسية واجتماعية عميقة، صاغها فقيهٌ وأديبٌ امتلك من الشجاعة ما جعله يُشرح عواطف الحب وأحوال المحبين بأسلوب يمزج بين دقة العالم وعذوبة الشاعر. في هذه النسخة التي حققها وقدم لها محمد إبراهيم سليم، نجد دعوة لاستكشاف فلسفة ابن حزم في "العشق"؛ ذلك الخيط الرفيع الذي يربط بين الأرواح، متتبعاً أسبابه، علاماته، وتقلباته بين الوصل والهجر، وبين العفة والمعصية. يأخذنا ابن حزم في جولة بين فصول كتابه (التي تتجاوز الثلاثين باباً) ليثبت لنا أن الحب ليس ضعفاً، بل هو جزء من التكوين الإنساني الذي يستحق التأمل والبحث، مقدماً لنا "أدب الفقهاء" في أبهى صوره التي تترفع عن الابتذال دون أن تغفل عن الواقع.

كلمات مفتاحية : طوق الحمامة في الألفة والألاف ، ابن حزم الاندلسي

Tawq Alhamama fi Alolfa Walalaf by the Andalusian Scholar and Jurist Ibn Hazm (d. 456 AH)

Review of an Article in a Book

A.L. Shaima Abdul-Baqi Awad Farih
College of Education for Women – University of Anbar
Shaima.a.awad@uoanbar.edu.iq

Abstract

We have before us today one of the most delicate and daring works penned by Andalusian writers, and one of the most fair in its treatment of human emotions: The Ring of the Dove on Love and Affection by the eminent scholar Abu Muhammad Ali Ibn Hazm al-Andalusi (d. 456 AH). This work is not merely a collection of poetry or a book on "love," but rather a profound psychological and social study, crafted by a jurist and writer who possessed the courage to explain the emotions of love and the states of lovers in a style that blends the precision of a scholar with the sweetness of a poet. In this edition, edited and introduced by Muhammad Ibrahim Salim, we find an invitation to explore Ibn Hazm's philosophy of "love." That delicate thread that connects souls, tracing its causes, signs, and fluctuations between union and separation, chastity and transgression. Ibn Hazm takes us on a journey through the chapters of his book (which exceeds thirty sections) to demonstrate that love is not a weakness, but rather an integral part of human nature, worthy of contemplation and exploration. He presents us with the "literature of the jurists" in its most sublime form, one that transcends vulgarity without neglecting reality.

Keywords: The Ring of the Dove, Ibn Hazm al-Andalusi

- **منهجية المؤلف**

منهجية الإمام ابن حزم الأندلسي في كتابه "طوق الحمامة" ضمن النقاط الجوهرية التالية:

1. الملاحظة المباشرة والتحليل النفسي (الواقعية)

اعتمد ابن حزم منهجاً يقوم على المشاهدة والمعايشة بدلاً من النقل عن المتقدمين. يذكر بوضوح في الصفحة (13): "والذي كلفتني لابد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي، وأدركته عنايتي، وحدثني به الثقات من أهل زماني".

رفض التقليد: يرفض استعارة أخبار الأعراب أو الحكايات القديمة المكررة، ويؤكد: "لا أتحلى بحلى مستعار"، مما جعل كتابه وثيقة اجتماعية ونفسية صادقة لعصره.

2. المنهج الاستقصائي والترتيب المنطقي

قسم ابن حزم ظاهرة الحب إلى 30 باباً، رتبها ترتيباً منطقياً يبدأ من:

أصول الحب وماهيته.

أعراضه وصفاته (كالتعريض بالقول، الإشارة بالعين، والمراسلة).

تقلبات أحواله (كالوصل، الهجر، الوفاء، والغدر).

الآفات والمنغصات (كالرقيب، والواشي).

الخاتمة في فضل التعفف وقبح المعصية (المنزع الديني).

- **الأسلوب الأدبي:**

البساطة والوضوح: تجنب ابن حزم في نثره "التكلف" أو "الصنعة" التي كانت سائدة في عصره.

يمتاز أسلوبه بالدقة والجلية، مع إيراد بعض المصطلحات الفلسفية والمنطقية أحياناً، مما يعكس خلفيته الثقافية العميقة.

يستخدم شعره الخاص لخدمة النص النثري وتوضيحه، حيث يورد مقطوعات شعرية نظمها بنفسه لتعبر عن الحالة التي يشرحها.

4. الأمانة والستر في العرض (المنهج الأخلاقي)

- رغم صراحته "الخارقة" في وصف المشاعر، إلا أنه وضع ضوابط أخلاقية في ذكر الشخوص:
- الكناية عن الأسماء: كان يمتنع عن ذكر أسماء أصحاب القصص الواقعية إذا كان في ذلك "كشف لعورة" أو ضرر، وكان يكتفي بالتسمية في حال كان الأمر مشهوراً ولا يعيب صاحبه.

5. الجمع بين "الأدب" و"الفقيه"

- تظهر منهجية ابن حزم في محاولة "ترويح النفوس" بالاستناد إلى أثر ديني وأدبي، فهو يرى أن الاستجمام بالحديث عن الحب (في إطاره العفيف) يعين النفس على الحق، مستشهداً بقول: "أريحوا هذه النفوس، فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد".

- **التحليل الموضوعي**

تحليل موضوعي لجوهر فكر ابن حزم في هذا الأثر الفريد:

التحليل الموضوعي لكتاب "طوق الحمامة"

1. تعريف الحب: بين الفلسفة والديانة

يبدأ ابن حزم بوضع قاعدة جريئة في زمانه، وهي أن الحب ليس بمستنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة.

- **المنزع النفسي:** يرى أن الحب "أوله هزل وآخره جد"، وهو استعراض لدقة معانيه التي لا تُدرك إلا بالمعاناة.
- **القدوة التاريخية:** يستشهد بالخلفاء الراشدين وأئمة الهدى الذين "أحبوا"، ليضفي صبغة الشرعية والقبول الاجتماعي على هذا الشعور، مفرقاً بين الميل العاطفي وبين السلوك الأخلاقي.

2. نظرية "اتصال النفوس" (ماهية الحب)

يقدم ابن حزم تفسيراً أقرب للفلسفة الأفلاطونية في تفسير سر الانجذاب (الصفحة 19):

- **تمازج القوى:** يرى أن سر التمازج بين المحبين هو "اتصال النفوس" وتقسيم قواها في عالمها العلوي، فالحب عنده ليس مجرد إعجاب بالشكل أو توافق في الأخلاق، بل هو **اتصال روحي** يطلب فيه النصف نصفه الآخر (كما ورد في الهامش حول نظرية "الكرة" المنقسمة).
- **الحب الذاتي:** يؤكد أن الحب الحقيقي هو ما كان لذات النفس، أما الحب لسبب (كجمال الصورة أو طمع في جاه) فإنه يزول بزوال السبب.

3. تصنيف أنواع المحبة (تراتبية العاطفة)

يضع ابن حزم هيكلاً لأنواع المحبة، مما يظهر قدرته على التحليل التصنيفي:

- **محبة المتحابين في الله:** وهي الأفضل (لأجل العقيدة أو المذهب).
- **محبة القرابة، والألفة، والمصاحبة.**
- **محبة العشق:** وهي النوع الذي لا علة له إلا "اتصال النفوس"، ويصفه بأنه النوع الوحيد الذي لا يبلى ولا يفنى إلا بالموت.

4. التشريح النفسي لأعراض العشق

من خلال قائمة الأبواب (الفهرس)، يتبين أن ابن حزم لم يترك شاردة ولا واردة في سلوك المحب إلا ورصدها:

- العلامات الجسدية: (الإشارة بالعين، إدمان النظر، القلق).
- سلوكيات التواصل: (المراسلة، دور السفير، طي السر وإذاعته).
- الصراعات النفسية: (الطاعة والمخالفة، العاذل، الرقيب، الواشي).

5. البعد الأخلاقي والتربوي

رغم الغوص في تفاصيل الحب، يختم ابن حزم كتابه ببابين حاسمين:

- **قبح المعصية وفضل التعفف:** هنا يعود "الفقيه" ليوجه هذه العواطف الجياشة نحو إطارها الأخلاقي، محذراً من الانزلاق وراء الشهوات التي تفسد النفس والديانة، جاعلاً من "العفة" ذروة سنام الحب الصادق.

كتاب "طوق الحمامة" ليس مجرد كتاب في الغزل، بل هو **محاولة مبكرة في علم النفس الاجتماعي**. ابن حزم يحلل الحب كظاهرة إنسانية مركبة؛ تبدأ برباط روحي غيبي، تمر بسلوكيات وتغيرات نفسية ومادية مرصودة، وتنتهي بضرورة الانضباط الأخلاقي والديني.

- **التنظيم المنهجي**

التنظيم المنهجي في "طوق الحمامة": هندسة الأفكار، يظهر من فهرس الكتاب وبدايات الأبواب أن ابن حزم لم يكتب خواطر عابرة، بل صمم "خارطة طريق" تبدأ من التجريد الفلسفي وتنتهي بالتطبيق الأخلاقي، وفق الآتي:

1. التدرج من "الماهية" إلى "الأعراض"

بدأ الكتاب بباب "ماهية الحب"، وهو وضع الأساس النظري، ثم انتقل فوراً إلى "علامات الحب"؛ وهذا يعكس منهجاً علمياً يبدأ بالتعريف ثم ينتقل إلى الظواهر المرصودة (العلامات الجسدية والسلوكية).

2. منهجية "توليد الحالات" (الأبواب 3، 4، 5)

في الصور المرفقة (ص 31، 32، 34)، نجد تنظيماً فريداً لكيفية حدوث الحب، حيث خصص لكل حالة باباً مستقلاً:

باب من أحب في النوم: وهو تحليل لتعلق النفس بالخيال والمنام.

باب من أحب بالوصف: وهو تحليل للحب الذي ينشأ عن طريق السمع والنقل قبل الرؤية.

باب من أحب من نظرة واحدة: وهو تحليل للوقوع المباشر والمفاجئ في الحب.

الملاحظة المنهجية: ابن حزم هنا يعمل كعالم نفس (Psychologist) يصنف "مداخل" العاطفة إلى النفس البشرية.

3. المزاوجة بين "الخبر" و"الشعر"

في كل باب (كما يظهر في ص 32 و33)، يتبع ابن حزم هيكلية ثابتة في العرض:

التقرير النثري: يشرح فيه الحالة بأسلوب منطقي.

الاستشهاد الشعري: يورد أبياتاً من نظمه الشخصي لتوثيق الحالة شعورياً، ويؤكد دائماً: "وفي ذلك أقول شعراً منه...".

القصص الواقعية (الأخبار): يختم الباب بقصص واقعية شهدها بنفسه أو نقلها عن ثقات، ليعطي لنهجه صبغة "الواقعية التاريخية".

4. ثنائية "الضد والتقابل"

اعتمد في تنظيمه على وضع الشيء وضده ليتضح المعنى ، فهو يقول: "وجعلنا الضد إلى جنب ضده؛ فاختلف المساق في أبواب يسيرة". نجد هذا في:

باب "الوصل" يقابله باب "الهجر".

باب "الوفاء" يقابله باب "الغدر".

باب "طي السر" يقابله باب "إذاعته".

هذا التقابل المنهجي يساعد القارئ على استيعاب المفهوم من خلال مقارنته بنقيضه.

5. الغائية الأخلاقية

لم يترك الكتاب مفتوحاً على اللذة أو العاطفة المجردة، بل أحكم إغلاقه بمنظومة قيمية

قبح المعصية / فضل التعفف: ليجعل من كتابه رسالة تربوية في المقام الأول، محققاً التوازن بين "الأدب المكشوف" و"الالتزام الديني".

التنظيم المنهجي عند ابن حزم هو "تنظيم تصاعدي"؛ يبدأ بالروح (الماهية)، ثم يمر بالعين والأذن (النظر والوصف)، ثم ينتقل إلى السلوك (المراسلة والوصل)، وينتهي بالارتقاء الأخلاقي (التعفف). هو بناء هندسي متكامل يجعل من "طوق الحمامة" دراسة رصينة لا مجرد كتاب وجداني.

- **الاسلوب**

يُعد أسلوب ابن حزم في "طوق الحمامة" طفرة أدبية في سياقها الزمني، فهو يجمع بين دقة الفقيه، وخيال الشاعر، وتحليل الفيلسوف. ومن خلال الصفحات التي أرفقتها، يمكننا استخلاص السمات الأسلوبية التالية:

1. التحرر من التكلف الصنعة الأدبية

على عكس الكتابات السائدة في عصره التي كانت تغرق في السجع المتكلف، نجد أسلوب ابن حزم يتميز بـ:

البساطة والوضوح: يميل إلى إيصال الفكرة مباشرة دون تعقيد لفظي، وهو ما أشار إليه المحقق في مقدمة "هذا الكتاب في سطور"، حيث وصف نثره بأنه لا يتكلف الصنعة ويؤثر الدقة والجلية.

الواقعية المباشرة: أسلوبه يعتمد على المشاهدة الحية، مما يجعله قريباً من لغة العصر ومبتعداً عن استعارة أخبار الأعراب القديمة، فهو يقول: "لا أتحلى بحلى مستعار".

2. المسحة المنطقية والفلسفية

تظهر في أسلوبه لغة "العلماء" حتى في أكثر المواضيع عاطفية، ويبرز ذلك في:

استخدام المصطلحات العلمية: يورد في نثره مصطلحات مثل (العلل، النتائج، ماهية، عرض)، مما يعطي للنص صبغة تحليلية رصينة.

الاستدلال العقلي: لا يكتفي بسرد القصص، بل يعلل الظواهر النفسية، كما فعل في شرحه لسر التمازج بين النفوس واتصال القوى العلويّة.

3. المزاوجة بين النثر والشعر :يمتاز ابن حزم بأسلوب "التأكيد الشعري"، حيث:

يورد المفهوم نثراً بعبارات محكمة، ثم يتبعه بقطعة شعرية من نظمه لتعميق المعنى وتصويره فنياً.

خلاصة القول في أسلوبه:

هو أسلوب "جزلٌ، عذبٌ، ومنطقي"؛ يبتعد عن الزخرف اللفظي ليركز على التشريح النفسي، محققاً بذلك معادلة صعبة تجمع بين متعة الأدب وصرامة البحث العلمي.

الخاتمة

تأتي خاتمة ابن حزم لكتابه "طوق الحمامة" (كما تظهر في الفهرس وفي صفحات التقديم) لتمثل "قارب النجاة" الأخلاقي الذي يختم به رحلته في عالم العشق، ويمكن إيجازها في النقاط التالية:

١. التوازن بين "الأدب" و"الديانة"

لم يكن ابن حزم يهدف من كتابه لمجرد التسلية، بل ختمه ببابين حاسمين هما: "قبح المعصية" و**"فضل التعفف"**. هذه الخاتمة تعكس شخصية ابن حزم "الفقيه"، حيث أراد أن يقول إن الاعتراف بالحب ومشاعر النفس لا يعني الانفلات من عقال الشرع والأخلاق.

٢. الانتصار للحب العفيف

يخلص في ختامه إلى أن أسمى درجات الحب هو ما ترفّع فيه المحب عن الدنايا، معتبراً أن التعفف هو الاختبار الحقيقي لقوة الروح ونبل المشاعر. هو يرى أن الحب الذي يبدأ بـ "اتصال النفوس" يجب أن ينتهي بـ "طهارة السلوك".

٣. الغرض من الكتاب (الترويح والوعظ)

في كلمته الأخيرة، يؤكد أن ذِكر أخبار العشاق وأحوالهم كان وسيلة لترويح النفس وإراحتها لتستعد للجد والعمل، مستشهداً بالأثر: "أريحوا هذه النفوس". الخاتمة هنا تعمل كجسر يعيد القارئ من عالم المشاعر الوجدانية إلى عالم المسؤولية الأخلاقية والدينية.

٤. التوثيق والأمانة

تختتم الرسالة بالتأكيد على أن ما أورده هو خلاصة ما شاهده وعايشه، مع الإبقاء على مبدأ "الستر" لمن لم يشتهر أمره، مما يجعل الخاتمة درساً في الأمانة العلمية والأخلاقية.

المصادر

- طوق الحمامة في الألفة والألاف لاديب الفقهاء الأمام أبي محمد علي بن حزم الأندلسي (ت456هـ) : حققه وقدم له وعلق عليه محمد ابراهيم سليم ، مكتبة ابن سينا – القاهرة ، 2010 .